

قراءة نقدية للمجموعة الشعرية "شمس على ثلج الحروف" لعلي مولود الطالبي

A critical reading of the poetry collection "Sun on the Snow of Letters" by Ali Mouloud Talbi

*- د. فاطمة نصير

*- مخبر الدراسات الأدبية والنقدية

*- جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة / الجزائر

* fatmanecir@hotmail.com

تاريخ القبول: 2024/11/15

تاريخ الإرسال: 2024/10/03

الملخص:

يقدم هذا المقال قراءة نقدية للمجموعة الشعرية "شمس على ثلج الحروف" للشاعر العراقي علي مولود الطالبي، صدرت المجموعة الشعرية من دار أكد البريطانية. العراقية للنشر والتوزيع بالقاهرة سنة (2013)، هذه المجموعة تعدّ الإصدار الثاني للشاعر المبدع بعد باكورة أعماله /مجموعته الأولى الموسومة ب: ضوء الماء، المطبوع في دار تموز رند للنشر والتوزيع بدمشق في العام (2011).

الكلمات المفتاحية: الشعر، علي مولود الطالبي، الأسلوب، الموضوعات.

Abstract:

This article presents a critical reading of the poetry collection "Sun on the Snow of Letters" by the Iraqi poet Ali Mawloud al-Talibi. The poetry collection was published by the Akkad British-Iraqi Publishing and Distribution House in Cairo (2013). It should be noted that this collection is the second publication by the creative poet, following his debut work/first collection, entitled: The Light of Water, published by Tammuz Rand Publishing and Distribution House in Damascus in 2011.

Keywords: Poetry, Ali Mouloud Talbi, Style, Topics.

مدخل:

يضم ديوان (شمس على ثلج الحروف) بين دفتيه تسع وعشرون (29) قصيدة ، مرتبة ترتيباً إبداعياً مستحدثاً اختاره الشاعر ، فجاءت قصائده مرتبة ترتيباً تسلسلياً تنازلياً على حروف الهجاء العربية بدءاً بالهمزة وانتهاءً بالياء ، وذلك ما يلاحظه القارئ / المتلقي على مستوى حرف الروي ، إذ أن كل قصيدة من القصائد تلتزم بحرف من حروف الهجاء على مستوى حرف رويها .

01/ تيمات المجموعة الشعرية:

السمة الغالبة على لغة النصوص الشعرية في هذا الديوان ، هي الرقة والانسيابية والعدوبة ، كيف لا والشاعر ينهل من معين مياه دجلة والفرات ليصوغ قصائد عصماء تترنح موضوعاتها بين الوطنية والرومانسية ، وكل ما تشمله هاتين التيمتين /الموضوعتين من موضوعات فرعية تشكل السياق العام للديوان ، فقصائد الديوان تفتش الأحران وتلتحف بالآلام ، إنه وجع الضمير العربي الكامن في لا شعور المبدع ، تشي به المعاني المتوارية وراء عرش من الألفاظ والحروف اللامحة ، لتندفق في فيض شلال منهمر وتنسج أغنيات الشجن الحالم للحبيبة / بغداد على أرضية القصيدة المعنونة بـ " قميص النهر أنا " والتي يقول فيها ¹:

"على ضلوعي رنة

ومعاقب

سفاهة تبرص

دائي العراق

متى أكون دواءه؟

ومتى أعانيه العراق...

وأفحص

يا أيها القمر الذي دمي

الحب

كان يهزني إذ أرقص

تبقى أماسينا...

تخيظ سحابة

بشوب

لبستان العراق ...

فيشخص

اسم الحبيب :

زرعت فوق محاجري

فوق السناء

وما عداه تقلص

كان العراق ولم يزل

أهزوجتي

وهوأي

بل فيه الوجود أخص

يا أيها الوطن الذي عصفوره ...

شرب المدى

ما بال حظي ينقص

يبوح الشاعر بأحزانه ويتساءل عن نقصان حظه ، لكنه لم يشك في حبه لموطنه وهيامه به ، كان ذلك دفق أحاسيس ونزق شاعر ، ردة فعل إبداعية عن ما حدث ويحدث في بلاد الرافدين التي أطلق عليها الخليفة أبي جعفر المنصور على عاصمتها بغداد اسم " مدينة السلام " ، تيمنا وتفاؤلا بأن تبقى آمنة مطمئنة ، ولكن الأيام فعلت ما شاءت ببلد السلام فصار بلد اللاسلام ، رغم أنها مصدر آلامه لم يتنكر الشاعر لها ، فهو يتألم لها ولأجلها حبا وعشقا وولها بها ، ويجدد في أكثر من موضع في ديوانه حبه للوطن / العراق نافيا أية شكوك ، راضيا بما يكون منها رضا العاشق المتيّم ، نقرأ ذلك في قوله²:

لم أشك !

لكن

ربما هي حيرة

أنا فيك

لا من كوكب أتلصص

لك من فؤادي

ما تنأثر نبضه

لهفاً

وبغداد الخلاص

ستخلص

إني أجوع

وقد قبلتك نحلة

إن عز شهدا

أرتضي

لو تقرر!

حب لا متناه ، حب لا تحكمه مقاسات وأحكام مسبقة ، لو أن الوطن نحلة فالشاعر يقبل أن تكون مصدرا للألم ، فوجع "القرص" يتلاشى بحضور الشهد المصفى الذي تنتقيه النحلة / الوطن من كل البساتين وجميع أنواع الزهور ، فالوجع الذي يعانيه المبدع كنموذج للمواطن العراقي الواعي هو حس وطني ووعي إنساني ، وكأن بالشاعر علي مولود الطالبي يستلهم قول الشاعر قديما :

بلادي وإن غارت علي عزيزة وأهلي وإن جاروا علي كرام

حس وطني متفاقم يرسخ معنى العروبة والانتماء للأرض والوطن بعيدا الظروف السياسية والأحداث والتقلبات الاجتماعية .

يقفز الشاعر إلى ما وراء الحدود الإقليمية ليتغنى بالوطن الأكبر / الوطن العربي ، بدافع قومي ، هذا الوطن الذي كان يوما ما جسدا واحدا ثم تفكك ، فتهافت أحلام اليقظة والحقيقة في تشييده وبنائه من جديد تحت مسمى "الوحدة العربية" ، وانتحرت كل مشاريع جمع شمل العروبة على حافة الواقع الدموي .

بلغة أنيقة تجذب القارئ لخص الشاعر في قصيدة " خارطة مساماتي " مزايا كل بلد عربي وخصائصه التي تسكب عليه هالة من الفرادة والتميز عن غيره من البلدان العربية الأخرى ، لينجح في الأخير في تشكيل صورة مكتملة الأجزاء عن جغرافية الوطن العربي من المحيط إلى الخليج ويستلهمها بمقدمة يطرز فيها أجمل مشاعر الشوق والحنين وفيها يستدعي التاريخ ويتناص مع النص القرآني الكريم لتصوير الشوق العارم الذي يجتاحه :

وجهي أنا عرب الأوطان والصور

وكلي الأرض يستلقي بها المطر
 من قلب عدنان أو قحطان داعبنا
 عصف من الشوق لا يبقى ولا يذر³
 يستدعي الشاعر في المقطع المذكور أعلاه قوله تعالى في سورة المدثر: "سأصليه صقر وما أراك
 ما صقر لا تبقي ولا تذر لواحة للبشر"⁴ .
 إذ أن استحضار الآية القرآنية كان سكة للتعبير عن درجة الشوق إلى الوطن حد الاحتراق،
 فإن كان التعبير في النص القرآني يقصد الاحتراق بالنار عذاباً ، فالشاعر هنا استضاف
 المعنى ليبوح بالتحرق شوقاً لبلاد العرب .
 القصيدة التي نحن بصدد الحديث عنها من أكثر قصائد الديوان اكتمالاً من حيث المعنى
 والصورة واللغة والإيقاع ، وفي هذا لا يسعنا إلا أن ننقل مقاطع سريعة من أجزاءها كتمثيل
 يحاول دونما جدوى اختزال ما قدمه الشاعر في قصيدته المطولة التي يستهلها بالكلام عن
 عشقه الأول / العراق ، فمنها قوله⁵ :
 أنا العراقي في عمقي ، ومأثرتي
 وريد ماء صبور كالأولى صبروا
 صمت السماء نشيد من سنا وجنتي
 وصمت بغداد شعر إن هموا نثروا
 عمان جارته تعلو به قبلا
 سلالم العشق حتى يمرح القمر
 تغفو الحياة بمسك الشيخ زايد
 وللإمارات ما لم يدع البشر
 وبالشذا رئة البحرين تختبر
 لكل زيتونة في الكون تونسها
 عود الربيع أمها الوتر
 وقد دهشت بأقمار غدت جزرا
 فضاع صوتي وقد عادت به الشذر
 يعليك ذكر شهيد في جزائرها
 يفك أزرار شمس بوحها العطر

وتلك جيوتي الدفاقة ، انتهلوا
 من حمها فهو يسقينا ، ويعتذر
 وللرياض رياض ما لها شبه
 إن عز غيث فنجواها لنا المطر
 وفخرنا دوحة في الليل عازفة
 وفي النهار شميم ثم ينتشر
 وسر إلى اليمن الميمون مشربها
 وسيف ذي وزن يزهو به الأثر
 ولا تسائل إذن ، كل الكويت لقي
 وقلب إنسانها تبر لو احتفروا
 وأرض مصر نبيل مكرم دمها
 أليس نيلا بالنبض يزدهر ؟
 وأنت يا مصر ما أمهاك منتسبا
 وكم يلذ لنا ما طيب السهر
 وشعب سودان للتحرير كوكبة
 من اللآلئ والأنهار تنتشر
 ويشرق المغرب المسطور في أدب
 يسمو كما بزّ ماضيه وبيتكر
 وجمر سورية امتدت مواقده
 وهي الشهامة فيها الكون يختصر
 أدري موريتانية المشتاق خافقها
 لوحدة العرب حيث البحر والجزر
 ولتبق لبنان مرسى للغيوم سعت
 منها الغناء ومن أصيافها العبر
 ودق ناقوسه في القلب معضلة
 شعب لغزة ، فالغازي سينتحر
 ومجد ليبيا أتاها من مقالدها

زعيم نار فكل حوله غمروا

قصيدة طويلة تأخذ القارئ في رحلة إلى ربوع الوطن العربي ، حرف رويها الرء الذي يضيفي على النص موسيقى بصفته التكرارية ، حاول فيها الشاعر اختزال وطن موجوع أطرافه مترامية من المحيط إلى الخليج ، وطن يئن ، ينام على الانتهاك والسلب ويصبح على أشلاء الشهداء و رائحة الدماء ويمسي على جراحات الأبرياء.

02 / سمات أسلوبية :

لغة القصائد تتسم بالانسيابية والسلاسة التي سبق وأن أشرت لها في مطلع البحث ، لغة مائية لزجة هلامية يستعصي الإمساك بتلابيبها ، لغة تشكل ألف معنى في جعبة عبارة واحدة ، ومن عباءة القصيدة الواحدة تخرج الألفاظ لتوحي بما قاله النص وما لم يقله .
الماء ، الثلج ، البحر ، الخمر ، الشرب ، المطر ، أمواج ، الندى ، الغيم ، السواقي ، دجلة ، النهر ، زمزم ، المجرى وغيرها من الألفاظ التي تصب في حقل ما هو ماء أو ما يؤول إلى ماء أو ما يشكله الماء ، هي ما ينحت الصورة الهلامية الشفافية ، وهو ما يزيد بها بريقا يغري القارئ / المتلقي بتكرار القراءة أملا في الوصول إلى معنى المعنى .

وكمثال عن ذلك نستحضر قصيدة من القصائد التي يتغنى فيها الشاعر بأنشاه/الوطن ، فألحق بالعنوان كلمة " ماء " من أجل خلق انزياح في المعنى وبعثرة التركيب وإعادة تشكيله من جديد (الهدم / البناء) ، القصيدة عنونت بـ "أنثى الماء" ، عزفت على وتر حرف الروي (الباء) ، والقصيدة من القصائد المطولة مثل أغلبية القصائد التي يضمها الديوان ، لذا نكتفي بإدراج مقاطع مقتطفة منها ⁶:

كل النساء دمی في وجهك الرحب
يا طلة الحسن في ذا المرفأ العجب
يا نفحة من خلود لو سرت بدمي
بردا وسلمنا في لجة اللهب

-

لله درك من تغريد ساقية
يساقط اللحن في مجراك كالرطب
وجاء بدر مهابا ، ضاحكاً بلعى
ما كل من جاء يحكي رنة العنب !

يا وجد مشيتها الميساء كل ضحى
حتى المساء وخطو المنهل العذب
هي الندى ، شفة الرمان ترشفه
وكلما سألوا الرمان لم يجب

-

أظنها من نساء الماء ، همستها
رقراق حلم سرى من عين مغترب
ولو عشقنا فهل نختر تهلكت ؟
نعم ورب وصال عاد كالذهب !

يلاحظ في قصيدة (أنثى الماء) استحضار ألفاظ رقيقة مستلة من قاموس الألفاظ المائية كما تقدم ذكرها ، وقد تجاوزت تجاوزا شاعريا جميلا مع استحضار بعض الرموز الدلالية الراسخة في الثقافة الدينية والشعبية كاستحضار الرمان والعنب ، هذا التجاور ألبس القصيدة ثوبا ملونا بألوان الحداثة والمعاصرة ، فالرمان مثلا في الموروث الشعبي من الفواكه الدالة على الخصوبة والوفرة والنماء ، ناهيك عن شرف ذكره في القرآن الكريم ، بالإضافة إلى ذكر العنب. أيضا. في القرآن الكريم⁷، وقد كان توظيفه خلافا إبداعيا مستوحى من المثل الشعبي القائل: "إنك لا تجني من الشوك العنب"⁸ ، مفاد هذا المثل عدم جدوى انتظار الشيء من غير أصله: "ما كل من جاء يحكي رنة العنب".

أيضا صورة شعرية أخرى توظف النص القرآني باستدعاء قصة السيدة مريم البتول عليها السلام ، وذلك في قول في قول الشاعر: "يساقط اللحن في مجراك كالرطب" يخرج معنى هذا القول الشعري من بطن الآية الكريمة التي يقول فيها عز وجل: "وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا"⁹ ، وكأن باللحن ثمرا يساقط من شجرة الألحان والنغم الذي يغني على أوتاره شاعر تغني لحب المرأة الوطن المرأة الأم المرأة الحبيبة... الخ تغني بالطبيعة تغني بالأب تغني بالأمل تغني بالألم وغنى للأمل القادم بالرغم من وشاح الأحزان الذي يلف جسد الديوان و يغطي وجه القصيدة .

إلى جانب الحضور المكثف للماء وما قاربه أو اشتق منه ، نلاحظ استضافة عناصر الطبيعة بكل جمالياتها ، خاصة " الضوء " الذي برع الشاعر في إسقاط أشعته على أبيات القصائد عن طريق دمجها في محتوى النصوص فاستند إلى الألفاظ المقاربة للضوء (النور ، الشموع ،

الشمس ، الصبح ، القمر ، النجوم ، الدمع ، المنابع ...) مثل قوله في قصيدة : " وجه الحنين

10"

أمشي إلى هذب النجوم بحسرة

والنهر يرويني ويفزل دمعتي

والأمثلة تطول بطول نفس المبدع وزخمه الشعوري الذي يستحضر المواد الخام من الطبيعة ويحولها من نطف غير مخلّقة إلى نطف مخلّقة ، ثم يفرغ عليها من جمال التعابير ورونق العبارات وعذب الألحان والموسيقى الشعرية .

خاتمة:

مما تقدم يمكن في الأخير تسجيل ملاحظات لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تشمل كل ما طرح في الديوان ، وليس بإمكانها أيضا اختزال البوح الذي تربّع في مساحة بياض قدرها 120 صفحة ، وردت كلها في قالب الشعر العمودي أثبت فيها الشاعر بجدارة قوة شاعريته المناسبة كسيل منهمر من أعماق شاعر متقد الخيال مرهف الإحساس ، يقتفي خطى الشعراء القدامى والمحدثين في التعبير برقة ورومانسية عن المعنى ، مسجلا بنفسه الشعري بصمته في سجل شعراء العرب الذين آمنوا بالقضايا العربية بشكل خاص والقضايا الإنسانية بشكل عام .

*-الهوامش والإحالات :

¹ .علي مولود الطالبي : ديوان شمس على ثلج الحروف ، دار أكد البريطانية .العراقية للنشر

والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى ، 2013 ، ص 63

² .الديوان : ص 65

³ .الديوان : ص 49

⁴ .سورة المدثر : الآية 28

⁵ .الديوان : ص 49 وما بعدها

⁶ .الديوان : ص 25 وما بعدها

⁷. ذكر القرآن الكريم العديد من الفواكه التي أطلق عليها بعض الباحثين ثمار الجنة من بينها "العنب والرمان" استحضرها الشاعر في قصيدته وفيما يلي نذكر بعض مواضع ذكرها في القرآن :

"فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب" سورة المؤمنون ، آية 19 .

"فيهما فاكهة ونخل ورمان" سورة الرحمن ، آية 68 .

"وفي الأرض قطع متجاورة وجنّات من أعناب" سورة الرعد ، آية 04 .

"وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب" سورة ياسين ، آية 34 .

"حدائق وأعنابا" سورة النبأ ، آية 32 .

"وجنات من أعناب والزيتون والرمان" سورة الأنعام ، آية 99 .

"وعنبا وقضبا" سورة عبس ، آية 28 .

"والنخل والزروع مختلفا أكله والزيتون والرمان" سورة الأنعام ، آية 141 .

⁸ . قصة هذا المثل تعود لصبي شاهد أباه ذات يوم يغرس في البستان شجرا ، وبعد مضي شهور أينعت الشجرة وآتت أكلها وأخرجت عنبا حلوا ، فظن الصبي أن كل شجرة تغرس ستنتج عنبا حلوا لذيذا ، فجاء الولد بشجرة شوك وغرسها ، فلاحظ بعد شهور أن الشجرة قد أينعت شوكا ، فقال له والده : "إنك لا تجني من الشوك العنب"

فصار مثلا سائرا ، يضرب لمن يفعل المعروف في غير أهله ، أو في عدم جدوى انتظارنا الشيء من غير مصدره وأصله .

⁹ . سورة مريم ، آية 25 .

¹⁰ . الديوان : ص 29

11 . المصدر نفسه : ص 43 .